روائع إعجاز القرآن في قصص الطير والحيوان

دراسة فنية في البنية العميقة

أ.د/ إبراهيم حسين الفيومي(*)

ملخّـــص

حفل الأدب العربي منذ العصر الجاهلي بذكر الحيوان والطير، حيث ورد في الشعر والنثر أنواع شتى من الحيوانات الآبدة والأليفة، إضافة إلى صنوف مختلفة من الطير عكست في مجموعها صوراً شتى من الحياة في ذلك العصر.

ويرى بعض الدارسين والنقاد أن إطلاق اسم الحيوان على بعض القبائل يشير إلى أن العرب في جاهليتهم كانوا يقدسون بعض الحيوانات، كما شاع ذكر بعضها في أشعارهم أحيطت بهالة من الاحترام والتبجيل ، فالناقة يكثر ذكرها في قصائدهم؛ لأنها رمز للعطاء ومصدر للرزق والنماء ووسيلة الرحلة في الصحراء. والخيول أداة الحرب وحامية حياض القبيلة، ومن هنا فقد حرصوا على حفظ أنسابها .

ولم يقف الأمر عند ذكر هذين النوعين، فقد ورد في الأدب الجاهلي ذكر الضبع والذئب والثعلب والبقر الوحشي والنسر والقطاه والحمامة، واتخذ بعض الطيور بعداً أسطوريا حين زعموا أنَّ "الهامة" طائر يخرج من رأس القتيل ويوالي الصياح طلباً للثأر من القاتل.

(*) أستاذ الأدب العربي الحديث بكلية الآداب ـ جامعة اليرموك ـ الأردن.

وشاع ذكر الحيوان والطير في الحكم المأثورة والأمثال السائرة والحكايات الخرافية التي سيقت على ألسنة هذه الكائنات ولها دلالاتها العميقة.

ودارت عجلة الزمان، وطويت صفحة العصر الجاهلي بمجيء الإسلام الذي أضاء الجزيرة العربية بنور الهداية، وامتدت الفتوحات المباركة شرقاً وغرباً تنشر هذا الدين الجديد الذي أبقى على القيم الإيجابية التي كانت شائعة في العصر الجاهلي وألغى كل ما يتعارض مع روح هذا الدين الجديد. فلا طيرة في الإسلام، ولا قداسة لمخلوق في ظل التوحيد، ولا أساس لكل الخرافات والأساطير التي كانت شائعة في الجاهلية.

وإذا ما تحولنا إلى القرآن الكريم، فإننا نلاحظ أنه حافل بأنواع الحيوان والطير التي اتخذت وظائف متنوعة في الأماكن التي وردت فيها، فمرة تأتي للدلالة على عظمة قدرة الله في الخلق، وأخرى تشير إلى معجزة أحد رسل الله رضوان الله عليهم، وثالثة تكشف عن نعم الله التي أسبغها على خلقه. وقد سميت بعض السور باسم حيوان معين كسورة "البقرة" أو سورة "الفيل"، كما سميت بعضها باسم حشرة كسورة "النحل" أو سورة "العنكبوت"، ناهيك عما ورد في تضاعيف الآيات الكريمة من أنواع الحيوان والطير التي تشير إلى بديع صنع الله وعظيم قدرته.

وقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى الإبل وعجائب خلقها، وإلى الخيول وتناسق شكلها وقدرتها على الكّر والفّر، وإلى العنكبوت ودقة صنعتها لتلك الخيوط التي تأخذ شكّلا هندسياً بديعاً، كما تدرج في العرض حتى وصل إلى النملة والذبابة، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أما القصص القرآني الذي يعّد ركناً أساسيا من أركان كتاب الله، فقد شدّ إليه

بقوة الدارسين المفسرين لكتاب الله، كما شدّ كل من رتّل كتاب الله وتأمل هذا القصص البديع الذي يعبر بك القرون مّرة فيعرض عليك جانباً من قصص الأمم التي سادت ثم بادت؛ لأنها كفرت بوجود الله وعاندت رسل الله رضوان الله عليهم. ويتحول بك إلى المستقبل البعيد فيهتك حجب الغيب، ويعرض ما سيكون للعين كأنها تراه حياً: فهذه الجنة ونعيمها تقابلها جهنم وجحيمها، ونسمع ذلك الحوار الحي الرائع الذي يدور بين أهل الجنة وأهل النار.

ويهمنا في هذا البحث أن نركز الضوء على الإعجاز في قصص الحيوان والطير التي وردت في القرآن الكريم، بعيداً عن ترديد ما ورد في كتب التفسير بصورة آلية تقليدية، إذ يهمنا أن نسبر غور قصص الحيوان والطير ومواضع الإعجاز فيه عبر رؤية تتوخى البنية العميقة وتنظر إلى النص نظرة شمولية تطّرح السطحية والنظرة الساذجة.

ومن الملاحظ أن العديد من كتب التفسير في العصر الحديث حاولت أن تستضيء بنظريات العلم والتكنولوجيا وقامت بربطها ببعض ما جاء في كتاب الله من إشارات إلى تلك المنجزات، كالذرة والظلمات الثلاث التي يعيش فيها الجنين، وإسناد الفعل إلى أنثى العنكبوت التي تقوم ببناء البيت من خيوط دقيقة بعيداً عن الذكر، وغير هذا كثير.

إن محاولة ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية أمر خطير له مزالقه وعواقبه غير المأمونة، ذلك أن محاولة بعض هؤلاء العلماء في اندفاعهم لتفسير القرآن عبر ربطه بنظريات علمية مكتشفة قد يثبت يوماً أنها غير صحيحة، سيؤدي بالضرورة إلى خلط وتشويش واضطراب.

إن القرآن الكريم ليس كتاباً في الفيزياء أو الكيمياء أو الطب أو غير ذلك من

العلوم، وإنما هو كلام الله المنزل على رسوله الكريم وحياً والمتعبّد بتلاوته والمتحدي به الإنس والجن والبشر إلى يوم الدين.

وإذا كان القصص الذي ينشئه البشر، يقوم على المزج بين الحقيقة والخيال، فإن القصص القرآني يعرض أحداثاً وقعت، وشخصيات عاشت، وأماكن حقيقية لا تمت لعالم الخيال بصلة من قريب أو بعيد، كما أن القصص الذي نسجه الإنسان منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا هو من إبداع الإنسان الذي يعتريه النقص والعيب، بينما القصص القرآني كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه بعض الفروق بين النوعين. ويطمح هذا البحث بعد دراسة البنية العميقة لقصص الحيوان والطير في القرآن الكريم إلى رصد حصاد الدراسة بعيداً عن التعصب والهوى.

والله ولي التوفيق

قصص الطير والحيوان عبر الزمان من الطوطمية إلى التوحيد:

ارتبطت حياة الإنسان منذ درج على هذه الأرض ارتباطاً وثيقاً بالحيوان والطير. ولما كان تفكيره ساذجاً سطحياً آنذاك، فقد أسقط مشاعره وأحاسيسه على ما حوله من الكائنات، فعبد العديد من الحيوانات والطيور والحشرات التي توهّم أن لديها مؤثرات خارقة تستحق التقدير.

ومن الملاحظ أن بعض القبائل الهندية أطلقت اسم طوطم(Totem) على حيوانها الخاص الذي تعبده، كما تدل لفظة الطوطمية (Totemism) على عبادة شيء معين سواء أكان حيواناً أم طائراً أم جماداً. وقد يشمل الطوطم في الغالب نوعاً من الكائنات الحية بأجمعه مثل جميع أنواع حيوان الكنغر أو جميع خفافيش الأرض التي يعرفها السحرة.

وغالباً ما يكون الطوطم محرماً (Tabu) على الجماعة، ولا يجوز مسّه أو أكله إلا وفق طقس ديني خاص لتسري روحه في الجماعة[١].

وما زالت الطوطمية قائمة كعقيدة دينية في بعض المناطق الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى، كما تكثر عند هنود الجانب الشرقي من أمريكا الشمالية الذين يقدسون الأرنب العظيم[٢].

وإذا ما تحولنا إلى الحضارات القديمة التي نشأ معظمها على دالات الأنهار، فأننا نلاحظ أن للحيوان والطير مكانة مرموقة في عقائدها الدينية، إذ تخيّل الإنسان المصري القديم الدنيا في وقت من الأوقات على هيئة بقرة متناهية في الضخامة أطلق عليها اسم (حتحور)، وأن آلاف النجوم تتألق على بطنها، كما بدت الأرض لذلك الخيال الساذج بساطاً ممتداً تحت أقدامها يعيش عليها الناس والحيوان وينبت الزرع.

وتصّور المصري كذلك الشمس عجلاً يولد مرة كل يوم، ثم يسير في موكب عبر السماء، فيقطعها ثم يغيب وراء الأفق ليستريح، ثم يعود في اليوم التالي ليقوم بالرحلة نفسها.

وتحوّل الخيال المصري في فترة تالية من العجل إلى الاعتقاد بأن الشمس هي طائر الباشق وهو المسمى عندهم (حورس)[٣]، كما قدّس المصريون القدماء طائراً اسمه أبو منجل، وكثيراً ما كانوا يمثلون بعض آلهتهم بشكل حيوانات وبشر معاً، "فبتاح" كان يمثّل بشكل ثور ، "وآمون ـ رع" بشكل كبش و"حورس" بشكل إنسان له رأس صقر[٤].

وشهدت بلاد ما بين النهرين حضارات كثيرة أقدمها حضارة السومريين الذين آمنوا بوجود عدد ضخم من الآلهة أو الكائنات السماوية التي أسبغ عليها السومريون فضائل وصفات إنسانية قوامها الخير والصلاح.

ومن أشهر آلهة البابليين "سن" إله القمر وابناه "شماش" إله الشمس "وعشتار" إله نجم الزهرة التي قدست في "أوروك"، ورمز إليها بنجمة آلهة الحرب وهي واقفة فوق أسدين حاملة جعبة، وفي إحدى يديها سلاح مقّوس، وفي الأخرى صولجان على شكل عصا متصلة بسلاح مقوّس، ويعلوها رؤوس عدة أسود[٥].

وتقوم الديانة البوذية المنتشرة بشكل واسع في الهند على مبادئ وحدة الوجود وتناسخ الأرواح وتقديس البقرة، وقد تنشب نزاعات حادة ـ حتى يومنا هذا ـ بين البوذيين والمسلمين كلما ذبح المسلمون نوعاً من البقر المقدس لدى الهندوس[٦]، الذين عبدوا كذلك القردة والفيلة البيضاء.

أما الديانة الإغريقية، فهي ديانة وثنية تؤمن بتعدد الآلهة، وتخصص كل إله في مجال معين، وإن كانوا جميعاً يخضعون لإله واحد هو كبيرهم "زيوس". ولقد صّور الخيال الإغريقي الخصب الآلهة في وضع يمكن الناس من استدعائهم بالصلوات والأدعية والقرابين،

فيرونهم قادمين في هيئة طيور[٧]. وعرضت آلهة النصر الإغريقية نيكي (Nike) على صورة فتاة جميلة منحوتة من الرخام ولها جناحان تطير بهما، كما أورد المؤرخ الأشهر "هيرودوتس" حلم والدة "بريكليس" إذ رأت ذات ليلة أنها وضعت أسداً، وبعد أيام قليلة ولدت طفلها الأمجد بريكليس الذي أضحى زعيماً أثينياً مشهوراً[٨].

وطويت صفحة الإغريق على يد الرومان الذين كانوا وثنيين قبل أن يتحولوا إلى الديانة المسيحية. وكان من ضمن الآلهة التي عبدها الرومان في العهد الوثني الأرواح التي تتقمّص الحيوانات المقدّسة، ومن بينها الحصان والأوز المقدّس والدجاج [٩].

ومن الملاحظ أن قصص الحيوان والطير تعدُّ من أقدم الحكايات الشعبية التي تتردد على ألسنة الجميع، وتوجد في كل بيئة، وتعرفها كل أمة، كما تحتلُّ مكاناً بارزاً بين الأشكال القصصية فيما يسمّى بالأدب المثقّف أو الأدب الرفيع.

وتكتسب شخصية الحيوان والطير في الكثير من القصص الخرافي والأسطوري صفات إنسانية أهمها النطق أو اللغة، وفي هذا الإطار نشأت تلك الشخصية الإنسانية التي قدِّر لها أن تفهم لغة الحيوان ، وأن تفيد من هذا الفهم في كشف المحجوب أو التنبؤ بالغيب.

وتزعم بعض العقائد القديمة أن الحيوان أعقل من الإنسان، وأن للحيوانات، وبخاصة الطيور،قوة خارقة لما يتاح لها من الفرص في الكشف عن المحجوب أو السر؛ لأنها تستطيع أن تراقب أحداثاً لها أهميتها دون أن يلاحظها أحد، كما تقدر على الوصول إلى أماكن يعزُّ على الإنسان بلوغها [١٠].

وتردّ أقدم القصص التي وردت على ألسنة الحيوان والطير إلى الهنود أو الإغريق أو الساميين، ويرجح الدارسون أن أقدم مجموعة وصلت إلينا هي "خرافات أيسوب" التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد.

وتعدّ "البانجاتنترا" الهندية الأصل أقدم مجموعة آسيوية، وقد ترجمها عبد الله بن المقنع إلى العربية عبر الفهلوية تحت عنوان "كليلة ودمنة"، حيث تساق الحكايات التي يرويها بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك على ألسنة الحيوان والطير كالأسد والثور والحمامة المطوقة والبوم والغربان جرياً وراء الحكمة [١١].

قصص الحيوان والطير عند العرب قبل الإسلام:

يحفل تاريخ العرب قبل الإسلام بالمعتقدات الخرافية والأسطورية التي تتصل بمعتقداتهم الدينية الوثنية التي انتشرت فيها بشكل لافت أنواع من الحيوانات والطيور. ومن القصص التي شاعت بين العرب في الجاهلية قصة الحية التي ملكت كنزاً، والسعلاة التي صادقت شاعراً، والنعامة التي يمتطيها الجن في الصحراء الموحشة تحت جنح الظلام [١٢].

ويذكر القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" أن سليمان، عليه السلام، سمَّى النسر ملك الطير، كما اتخذ بعض العرب في الجاهلية صنماً على هيئة النسر، وأشار القرآن الكريم إلى بعض آلهة العرب في الجاهلية إذ يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[١٣].

ومن الحيوانات الخرافية التي وردت في قصصهم وأشعارهم الغول والسعلاة، ومن الطيور العنقاء والهامة، كما كانت العرب في الجاهلية تتفاءل بالحمامة والقطاة والديك والهدهد، بينما تنفر من الغراب والبوم[١٤].

وشاع ذكر الحيوان والطير في الأمثال الجاهلية السائرة نحو قولهم: "أجرأ من ليث" "وأغدر من الذئب"، "وأضلّ من حمار أهلي" "وأزهى من غراب"، "وأهدى من قطاة" "وأشدّ عداوة من عقرب"، "وأجمع من ذرَّة" وغير هذا كثير[١٥]. وأورد الميداني في "مجمع الأمثال" قصة "في بيته يؤتى الحكم" على ألسنة الحيوان، حيث اختصم

أرنب وثعلب فاحتكما إلى الضب الذي جرت أقواله مجرى الأمثال السائرة؛ مما يشير إلى أن العرب في الجاهلية عرفوا حكاية الحيوان قبل أن يترجم عبد الله بن المقفع "كليلة ودمنة"، ناهيك عن بعض أساطيرهم التي تزعم إحداها أن الغول تجيء في صورة امرأة ولها رجلا حمار[١٦]، وهذا التصّور يردنا إلى الحضارة الفرعونية التي صوَّرت بعض الآلهة فيها بشكل حيوانات وبشر معاً شأن "حورس" الذي كان يأخذ شكل إنسان له رأس صقر، مع فارق جوهري بين التصورين، فالغول مصدر رعب وخوف للجاهليين، بينما "حورس" مصدر إجلال وتقديس عند الفراعنة.

وحفل الأدب الجاهلي، شعراً ونثراً، بأنواع الحيوان والطير التي عكس بعضها إيقاع الحياة اليومية، وعكس بعضها العلاقة الحميمة التي كانت تربط العربي في الجاهلية بأنواع خاصة من الحيوان والطير، فهناك حصان امرئ القيس وناقة طرفة بن العبد وكلب النابغة الذبياني، إضافة إلى أنواع شتى من الطيور الجارحة والأليفة التي انتشرت في الأدب الجاهلي [١٧].

وهكذا نرى أن القاسم المشترك الأعظم بين معتقدات القبائل البدائية وشعوب الحضارات القديمة والعرب في الجاهلية أنهم جميعاً عبدوا أنواعاً من الحيوانات والطيور وأحاطوها بهالة من التقديس والاحترام، كما منعوا صيدها أو إيذاءها.

قصص الحيوان والطير في الحضارة الفرعونية:

من أقدم النصوص القصصية التي وصلت إلينا بردية مصرية ترِدُّ إلى عام ٣٥٠٠ ق.م، وتحوي قصة عنوانها "جزيرة الثعبان"، وتحكي عن رحلة بحرية قام بها بحار اسمه (نجس)، وقد تعرضت سفينته لعاصفة شديدة قذفت بها إلى جزيرة الروح السرية، حيث تحطمت لكن ربانها نجا، وتوجه إلى الجزيرة التي وجد فيها ما لذّ وطاب من الطعام والشراب، كما مثل بين يديّ حاكم الجزيرة وهو ثعبان طوله ثلاثون ذراعاً وله

لحية طويلة. ولما أبدى الربان رغبته في العودة إلى مصر، أمر الثعبان الريح بأن توجّه إحدى السفن العابرة إلى شاطئ الجزيرة، وغادر "نجس" إلى بلاده بعد أن حمّله حاكم الجزيرة "الثعبان" الهدايا النفيسة لملك مصر[١٨].

ويتجلى في هذه القصة الخيال المجنح، ومكانة الثعبان لدى الفراعنة، وما يتمتع به من قوى خارقة تمثلت في تحكّمه بحركة الرياح البحرية، كما تعكس ولاء الشعب المصري للفرعون الذي كان يحاط بهالة من التقديس.

وإلى جانب القصص التي وجدت مدونة على البرديات، وجد على جدران بعض المقابر والمعابد والقصور الفرعونية قصص مصورة تمثل إحداها قطاً يحمل عصاه على كتفيه ويسوق الأوز أمامه، والأسود والغزلان تجلس معاً في أمان وسلام، إضافة إلى لوحة أخرى مصورة تمثل قطيعاً من البط يسوقه نمر [١٩].

وهذه اللوحات المصورة تشير بوضوح إلى أن الحضارة الفرعونية كانت قد قطعت شوطاً بعيداً وضعها في الصدارة بين الحضارات القديمة، كما أن قصص الحيوان والطير تحوي بعداً إنسانياً رائعاً يعكس حلم الفنان الفرعوني في أن يأتي يوم يسود فيه السلام عالم الحيوان والطير كما يسود عالم البشر.

ولم يقف تفوق الحضارة الفرعونية القديمة على غيرها من الحضارات القديمة عند هذا الجانب، بل تعدته إلى جوانب أخرى أهمها احترام المرأة وعدم امتهانها كما هو حال الحضارة الرومانية، إضافة إلى أن العديد من المصادر ترجح أن الفرعون أخناتون كان موحداً.

وهكذا نلاحظ أن المعتقدات الدينية التي تتصل بعالمي الطير والحيوان والقصص والحكايات الخرافية والأساطير التي نسجت حول هذين العالمين عبر الزمان تشير كلها إلى تخبط الإنسان في تلك الحقب المتطاولة وسطحية تفكيره وسذاجة عقله.

وقد لاحظنا أن الطموطمية هي اعتقاد بوجود رابطة دينية بين قبيلة أو مجموعة من الناس وبين طوطم هو عبارة عن حيوان أو طائر، ظنا منها أن روح الجماعة قد حلت في هذا الطوطم.

أما الحضارات الأخرى التي نشأت حول دالات الأنهار، فقد عبدت أنواعاً شتى من الحيوان والطير والظواهر الطبيعية؛ بدافع الخوف والرهبة، أو بدافع الحب ؛ لأن الحيوان أو الطير المعبود مصدر خير وعطاء. وأوحت الأحلام للإنسان في الحضارة القديمة بثنائية الروح والجسد، فظن أن الروح تغادر الجسد وتعود إليه من جديد، فإن وجدته متحللاً حلت في جسم إنسان آخر أو حيوان أو طير، ومن هنا جاءت فكرة التناسخ.

وهذا التخبط الذي تعكسه قصص الحيوان والطير، كان يرهص بأن الله سبحانه وتعالى قد تلطف بعبادهٌ وأرسل إليهم الرسول تلو الرسول كي يعيدهم إلى جادة الصواب، ويرشدهم إلى أن لهذا الكون إلهاً واحداً مدبراً كاملاً لا يعتريه النقص،وهو على كل شيء قدير.

قصص الحيوان والطير في ظل الإسلام:

ما إن جاء الإسلام حتى اختفت أو كادت تلك القصص الأسطورية أو شبه الأسطورية، ولم يعد لها تلك الأهمية التي كانت في الجاهلية.

وقد أضحى للقصص في ظل الدين الجديد هدف وعظي تأديبي، يرغب الناس في الخير والعمل الصالح، ويرهبهم من الشر وما يتعارض مع مبادئ الدين الجديد؛ مما أدى إلى رواج القصص وازدهاره في عصر صدر الإسلام وما تلاه من عصور، حيث انتشر القصاص في أرجاء الدولة الإسلامية. ويُروى أن أول من قصّ في مسجد الرسول عليه السلام هو تميم الداري، واشتهر كثيرون بالبراعة والقدرة على أداء هذا اللون من القول

منهم الحسن البصري وابناه سعيد وجعفر. وكان بعض الخلفاء والفقهاء ينحون باللوم على القصاص لأنهم يعمدون إلى الكذب والاختلاق[٢٠]، ومن هذا القبيل إضافة بعض العبارات لبعض الأحاديث النبوية الشريفة؛ لاسترضاء بعض ذوي السلطان، أو الإشارة إلى اسم النملة التي سمعها سليمان عليه السلام، أو اسم كلب أهل الكهف وغير هذا كثير[٢١].

وشتّ الخيال ببعض المفسرين والقصاص فراحوا يعرضون بعض حكايات الحيوان الخرافية، كما يخبرنا أبو عثمان الجاحظ فيقول: "وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر، فعطس الأسد عطسة، فرمى من منخريه بزوج سنانير، فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد، وسلح الفيل زوج خنازير، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل"[٢٢].

وقد شهد عصر التدوين اهتماماً ملحوظاً بالحيوان والطير، إذ صنفت كتب ورسائل عدة أوردها أبو عثمان الجاحظ وابن النديم وياقوت الحموي. ونذكر من هذه المصنفات، على سبيل التمثيل لا الحصر، كتاب الإبل لأبي عبيدة وكتاب الخيل لابن الأعرابي وكتاب الغنم والشاء لأبي حسن الأخفش وكتاب الطير لأبي حاتم السجستاني، وكتب البازي والحمام والحيات والعقاريت لأبي عبيدة، وكتاب الفرس للأصمعي وكتاب النحل والحشرات للسجستاني[٢٣]. وعرض الدميري في كتابه "حياة الحيوان الكبرى" أنواعاً شتى من الحيوان والطير والحشرات، وأشار إلى أن من الملائكة من هو على صورة النسر، ومنهم من هو على صورة الثور، ومنهم من هو على صورة الأسد، ومنهم من هو على صورة البشر[٢٤].

وإذا كان الدميري قد أورد ما أسلفناه عن صور الملائكة دونما توثيق، فإن العديد من المراجع وكتب التفسير قد أشارت إلى صورة البراق الذي حمل الرسول عليه السلام

وعرج به إلى السماء، حيث يصفه الرسول الكريم قائلاً: "هو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه"[٢٥].

وليس من شك في أن اختلاط العرب بغيرهم من الأمم إثر الفتوحات الإسلامية الواسعة أدت إلى تأثرهم بحضارات تلك الأمم المفتوحة، ومنها الأدب القصصي نحو كتاب "الدب والثعلب" وكتاب "سندباد الكبير والصغير" وغيرهما كثير.

وكان لكتاب "كليلة ودمنة" الذي نقله عبد الله بن المقفع من الهندية إلى العربية عبر الفهلوية أثره الواسع في الأدبين الرسمي والشعبي عبر العصور.

ويتجلى هذا التأثر بوضوح في "رسائل إخوان الصفا" التي جاء بعضها على ألسنة الحيوان، كما يبدو واضحاً في "رسالة الغفران" التي يعرض فيها بعض حيوانات الجنة، كما يلتقي بعض الحيَّات التي ظلمت في الدنيا وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس.

وعرض كتاب "ألف ليلة وليلة" أنواعاً شتى من قصص الحيوان والطير التي تعكس الأصول الهندية أو الفارسية التي نقلت عنها تلك الحكايات، فهناك الطاووس والطاووسة اللذان هربا من ظلم أبناء آدم.

وهناك حكاية الثعلب والذئب وقصة الفأر مع السّنور، ناهيك عن الحصان الطائر الذي قد يعكس من بعيد شكل البراق الذي حمل الرسول عليه السلام إلى السماء. وغالباً ما تأخذ حكايات الحيوان والطير في "ألف ليلة وليلة" وظيفة وعظية إرشادية، كما تعكس صورة الجور والظلم الفادح الذي يقع على الحيوان من الإنسان.

وكثيراً ما يكون الحيوان في "ألف ليلة وليلة" شخصية محورية من شخصيات القصة، فيتحرك ويتصرف ويتكلم كالآدميين[٢٦].

واستمر هذا السحر لحكايات الحيوان والطير عبر العصور، ورأينا بعض كتاب المقامات يفردون بعضها للحديث عن حيوان معين كالمقامة الأسدية لبديع الزمان

الهمذاني، بيد أن أحمد شوقي كان من السّباقين إلى سوق بعض الحكايات على ألسنة الحيوان والطير شعراً بقصد تهذيب الأطفال وتوجيههم، كما ترجمت حكايات الأخوين "جريم" عن الألمانية، إضافة إلى جهود الدكتورة نبيلة إبراهيم المتميزة في هذا الميدان. وهذه الجهود مجتمعه تشير إلى موقع قصص الحيوان والطير وسحرها العجيب لدى شعوب الأرض دون استثناء.

قصص الحيوان والطير في القرآن الكريم ـ مسح كميّ:

للحيوان والطير دور هام في القصص القرآني، إذ تعرض لنا قصة هابيل وقابيل كيف بعث الله سبحانه وتعالى غراباً يبحث في الأرض كي يعلم قابيل كيف يواري سوأة أخيه بعد أن قتله ظلماً.

وأمر الله سبحانه نوحاً، عليه السلام، أن يحمل في السفينة من كل حيوان زوجين، وكانت الناقة معجزة صالح عليه السلام، ناهيك عن حوت يونس وحية موسى وهدهد سليمان وكلب أهل الكهف وغير هذا كثير يؤكد موقع الحيوان والطير من القصص القرآني الذي تعددت غاياته وتنوعت أساليب عرضه التي تأخذ بالألباب[٢٧].

وتتجلى أهمية الحيوان والطير في القرآن الكريم في أسماء بعض سوره التي أخذت من عالم الحيوان كسور البقرة والأنعام والفيل، وبعضها من عالم الطير والحشرات كسور النحل والنمل والعنكبوت، كما أقسم الله سبحانه وتعالى ببعض الحيوانات فقال: "والعاديات ضبحاً"؛ مما يشير إلى مكانة الخيول عند الباري عزَّ وجلّ، ولا ننسى إشادة الرسول الكريم بها.

ويشير المسح الكمي لأنواع الحيوان في القرآن إلى أنه عرض ما يزيد على خمسة وعشرين نوعاً من الحيوان، ذكرت في مائة واثنين وعشرين موضعاً، وكان للفظ "الأنعام" منها حصة الأسد، إذ تكررت خمساً وثلاثين مرة، تليها لفظة "دابة" التي تكررت اثنتي عشرة مرة يضاف إليها لفظة "دواب" التي وردت أربع مرات.

أما لفظة العجل، فقد تكررت عشر مرات، وبقرة ثماني مرات وناقة سبع مرات، بينما وردت بقية الألفاظ بصورة محدودة للغاية.

ومن خلال استقراء الأرقام يمكننا أن نستنتج أن للأنعام الصدارة بين بقية أنواع الحيوان؛ لأنها تشكل عصب الحياة في كل المجتمعات على مدار الزمان، ذلك أنها مصدر الطعام والشراب واللباس والسكن، وهي وسيلة النقل والسفر: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٢٨)، ويقول عز شأنه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(٢٩).

وأوجزت الآية الكريمة السابقة في لفظتين هما "منافع كثيرة" وجوه انتفاع الإنسان بالأنعام في كل حين، كما دعته إلى أن يأخذ العظة والعبرة من هذه المخلوقات العجيبة التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان الضعيف العاجز: "﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(٣٠).

ومن الملاحظ أن الحيوانات التي تكرر ذكرها من الأنواع الأليفة التي عرفها الإنسان العربي منذ الجاهلية كالإبل والحمير والنوق والبقر وما إليها، بينما ذكرت بعض الحيوانات الطارئة على البيئة الصحراوية العربية لماماً: كالفيل مرة واحدة، والأسد الذي ذكر مرة واحدة بمرادفة "قسورة".

وتشعبت دلالة بعض أسماء الحيوان مثل لفظة "دابة" التي دلّت على كل ما يدبّ على الأرض: "﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(٣١).

وفي موضع آخر أشارت اللفظة إلى الحشرة التي أكلت عصا سليمان عليه السلام بعد موته: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾(٣٢).

وأشارت في موضع ثالث إلى الدابة التي هي إحدى علامات القيامة الكبرى. ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾(٣٣).

وجاءت لفظة "حوت" أو "النون" لتشير إلى ذلك الحيوان البحري الهائل الذي ابتلع يونس عليه السلام، ثم قذفه إلى الشاطئ حياً بأمر الله : ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾(٣٤)، بينما جاءت في موضع أخر بمعنى السمكة الملوحة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾(٣٥).

واختلف المفسرون حول لفظة "نعجة" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾(٣٦)، فحملها فريق على أنها أنثى الكبش، بينما ذهب فريق آخر إلى أنه كنىً بالنعجة عن المرأة(٣٧) .

وينسحب هذا التشعب في الدلالة على عالم الطير في القرآن الكريم، حيث عرض سبعة أنواع من الطيور تكرر ذكرها اثنتين وثلاثين مرة، وكان للفظة "طير" الصدارة، فتكررت عشرين مرة في معارض شتى، نحو قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾(٣٨) في الحديث عن القدرة الإلهية على البعث.

وفي موضع أخر تشير اللفظة إلى ظاهرة الصف العجيبة في عالم الطير: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(٣٩).

وفي موضع ثالث تصور نعمة الله سبحانه وتعالى على بعض أنبيائه ورسله في تسخير الطير لهم: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(٤٠).

وتنوعت دلالة لفظة "طائر"، فعرضت في سياقات شتى، حيث دلت في موضع على وحدة الخلق: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(٤١).

وقد أكد العلم الحديث هذه الحقيقة القرآنية، فاكتشف العلماء أن كل ما يسعى في الأرض أو يطير في السماء أو يسبح في الماء، إنما هي شعوب وقبائل وأمم تربطها صلات وعلاقات وثيقة[٤٢].

وجاءت لفظة "طائر" بدلالة أخرى تختلف تماماً عن الدلالات السابقة في قوله تعالى: "﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[٤٣]، أو قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٤٤]. والمقصود "بطائر" في الآيتين الكريمتين السابقتين ما يصيب الإنسان من خير أو شر بتقدير الله سبحانه وتعالى أو كتابه.

وتأخذ بعض الألفاظ في القصص القرآني بعداً رمزياً كلفظة "بقرات" في سورة يوسف، إذ دلت على السنوات: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾[٤٥]، فرمزت البقرات السمان إلى سنوات الخصب والبركة، والسنوات العجاف إلى سنوات القحط وانحباس المطر.

وهكذا يلاحظ المتأمل في كتاب الله أن اللفظة الواحدة، وإن تكررت في عدة مواضع، إلا أنها في كل موضع تأخذ موقعها المناسب الذي يختلف كل الاختلاف عن موقع الكلمة نفسها في سياق أخر، وهذا التنويع في أسلوب العرض إنما يدل دلالة قاطعة على أن هذا القرآن هو كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما يؤكد نظرية النظم التي أبدعها عبد القاهر الجرجاني حيث ذهب إلى أن اللفظة تكتسب بعدها البلاغي والجمالي من موقعها في السياق، وعلاقتها بالألفاظ الأخرى داخل العبارة.

الإعجاز القرآني في قصص الحيوان والطير:

المعجزة أمر خارق للنواميس الكونية الطبيعية، يجريه الله سبحانه على يد الرسول تأييداً لصدق رسله. والمعجزة لا تقع في أمر مستحيل عقلاً، وإنما تقع في أمر ممكن؛ لأن إرادة الله سبحانه لا تتعلق بالمستحيل[٤٦].

ويرى الزمخشري أن القرآن الكريم معجز من جهتين: جهة إعجاز نظمه، وجهة ما فيه من الأخبار بالغيوب، حيث تنبأ القرآن الكريم بانتصار الروم، وفتح مكة وهزيمة المشركين، وظهور الدين الجديد على كل دين سبقه[٤٧].

وسنتناول في بحثنا هذا الإعجاز القرآني في قصص الحيوان والطير فحسب، كي نتحاشى التعميم والتسطيح إذا ما توسعنا في قضايا الإعجاز.

والقصة في القرآن الكريم من الفنون الأدبية الرفيعة التي جاءت لتسهم فيما يرمي إليه كتاب الله بعامة من الوعظ والنصح والإرشاد، وليكون فيها معيناً لا ينضب من المواساة للرسول عليه السلام، فيصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، والدعوة إلى تأمل مخلوقات الله سبحانه براً وجواً وبحراً؛ لندرك مدى عظمته وقدرته التي تجلت في تلك المخلوقات العجيبة التي تشهد له بالوحدانية. ومن أغراض القصة القرآنية الأخرى إثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدين كله من مصدر واحد من عهد نوح إلى عهد محمد عليهما السلام، إضافة إلى بيان وسائل الرسل الموحدة وردّ الفعل الرافض المعاند من الكفار، والنهاية الواحدة بانتصار الرسل واتباعهم وهزيمة معسكر الشرك والالحاد.

ويهمنا أن نركز في هذا المقام على غرض هام هو بيان قدرة الله على الخوارق في عالم الحيوان والطير كما أسلفنا[٤٨].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أهم الفروق الجوهرية بين القصص التي أبدعها الإنسان منذ فجر التاريخ والقصص القرآني، إذ يقوم القصص الذي يصنعه البشر على التحرك بين عالمين: عالم الخيال وعالم الواقع، ومن خلال المزج بين النوعين تكون القصة التي يبدعها الإنسان، بينما يقوم القصص القرآني على حقائق دامغة لا يشوبها خيال كاذب أو أحداث مفتعلة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤٩].

والقصة التي يبتدعها الإنسان قد تعرض شخصيات من نسج الخيال، بينما قصص القرآن الكريم تعرض شخصيات عاشت كالرسل والأنبياء والأمم التي سادت ثم بادت، بعيداً عن تهويمات الخيال ومبالغات القاصين. وإذا كان من أهداف القصص الذي يصوغه البشر التسلية والترفيه، فإن القصص القرآني جاد كله، له أغراض سامية أشرنا إلى بعضها وكلها تنأى عن الهذر والتسلية وتزجية أوقات الفراغ.

ومن نافلة القول أن نشير إلى فرق جوهري آخر هو أن القصص الإنساني من صنع البشر بينما القصص القرآني من وحي رب البشر، وهو قصص معجز بديع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا كانت الكتب التي سجلت جانباً من تاريخ البشرية قد تعرضت للتحريف وتأويل بعض الأحداث وتزييف بعضها، فإن ما جاء به القرآن الكريم من إشارات كان مدعماً بالأدلة والبراهين القاطعة التي تثبت كل واقعة؛ فآثار الخسف التي غشيت قوم لوط ماثلة للعيان حتى يومنا هذا، ومنازل قبيلة ثمود الواقعة في "الحجر" بين الحجاز ووادي القرى تشهد بصدق القرآن الكريم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٥٠].

أما أسلوب القرآن الكريم، فهو معجز في تركيب الحروف داخل اللفظة الواحدة، وفي ترتيب الكلمات في الآية، وفي تنسيق الآيات في كل سورة، ومعلوم أنه تحدى الإنس والجن فعجزوا عن المجيء بمثله[٥١].

الإعجاز القرآني في قصص الحيوان:

يتجلى الإعجاز في القصص القرآني الذي كان فيه الحيوان مادة للإعجاز في خمسة مواضع تتصل معظمها ببني إسرائيل، وأقلها بغيرهم. والقصص الخمس الواردة في القرآن الكريم هي قصة بقرة بني إسرائيل، وحمارعزير، وحية موسى، وناقة صالح،

وكلب أهل الكهف.وهذه القصص مجتمعه تلتقي عند غرض رئيس واحد هو قدرة الله سبحانه على الخلق والبعث، كما أنها جميعاً تحوي معجزات وخوارق.

وإذا أردنا أن نرتب هذه المعجزات وفق تسلسل زمني، فإن قصة ناقة صالح ستقع في المقدمة، كما وردت في سور متعددة نذكر منها: الأعراف ـ هود ـ الحجر ـ الإسراء ـ الشعراء ـ النمل ـ فصلت ـ القمر ـ الشمس وغيرها. ومن أجمع الآيات القرآنية التي فصّلت الحديث عن قصة صالح مع قومه سورة الأعراف (من الآية ٧٣ ـ الآية٧٩).

وفي قول الله سبحانه على لسان صالح عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿يَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَة﴾[٥٢] إشارة إلى أن الناقة هي معجزة صالح عليه السلام الدالة على صدق رسالته، كما أن إضافة لفظ الجلالة إلى الناقة دليل على أنها ليست ناقة كغيرها من النوق؛ لأن الصخر انشق عنها وخرجت منه الناقة كنوع من الإعجاز والتحدي لقومه المعاندين الذين طلبوا إليه أن يخرج لهم ناقة.

وهذه الناقة التي عقرها قوم صالح لم تأت من تلقيح بعير لناقة، وإنما خلقها الله سبحانه وتعالى بقدرته لتكون حجة معجزة. ومن الملاحظ أن اختيار الناقة جاء منسجماً تماماً مع البيئة الصحراوية التي تمثل فيها الناقة ركناً أساسياً في حياة البادية، كما أن التركيز على الناقة لا الجمل يشير إلى مكانتها؛ لأنها رمز العطاء، ووسيلة الرحلة في الصحراء.

واشتجر النزاع في القصة حول الماء عصب الحياة، إذ كان للناقة يوم تشرب فيه، ولثمود يوم آخر، فوسوس الشيطان لكبراء القبيلة من المعاندين أن تلك قسمة ظالمة، وزيّن لهم عقر الناقة فكان في ذلك هلاكهم: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[٥٣].

وتكشف هذه القصة المخطط الهيكلي أو الصورة العامة للعديد من قصص القرآن الكريم، حيث يعرض الرسول على قومه الإيمان بالله الواحد، ويؤيد دعوته بمعجزة حسّية، فلا يلقى إلا الصد والعناد والإعراض والتهديد بالأذى والقتل، ثم تكون النهاية الحتمية فينصر الله سبحانه الرسول وأتباعه ويهلك الكفار المعاندين.

ونمضي مع قصص الحيوان إلى بيئة أخرى هي أرض مصر، ومع نبي آخر هو موسى عليه السلام ومعجزته العصا التي تحولت إلى حيَّة، حيث أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يلقيها أول مّرة عندما كان في الوادي المقدس بطور سيناء: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾(٥٤).

ومعجزة موسى هي العصا التي تتحول حية تسعى ثم تعود عصا إذا أمسكها، تكشف لوناً من التحدي الصارخ للكفرة المعاندين وعلى رأسهم فرعون، إذ كانوا يجيدون فن السحر آنذاك، فجاءت معجزة موسى من نوع ما يجيده القوم إمعاناً في التحدي وإصراراً على المواجهة، ويكشف المشهد حيث اجتمع القوم يوم الزينة وجاء السحرة لمنازلة موسى عن ثقتهم بالفوز: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٥٥).

والآيات الكريمة تكشف بوضوح عن الفرق الجوهري بين السحر والمعجزة إذ أن السحرة أوهموا الناس أن الحبال والعصي قد تحولت إلى ثعابين، بينما قامت معجزة موسى عليه السلام على تحول العصا إلى ثعبان حقيقي لقف الثعابين المتوهمة أو العصي

والحبال؛ مما دفع السحرة إلى الإيمان بدعوة موسى عليه السلام؛ لأنهم خير من يدرك الفرق بين المعجزة والسحر.

ويرى بعض المفسرين أن الحكم التي من أجلها حوَّل الله سبحانه وتعالى العصا إلى حية تسعى في أول لقاء توطين قلب موسى عليه السلام على ذلك، حتى لا يضطرب إذا ما تحولت عصاه إلى ثعبان عظيم عندما يلقيها أمام فرعون وقومه(٥٦).

وفيما نرى أن اختيار الحيَّة من بين الكائنات الأخرى لتكون معجزة لموسى يعود إلى أن الفراعنة كانوا يقدسونها، وهذا ما أشرنا إليه في سياق الحديث عن القصة الفرعونية القديمة "جزيرة الثعبان"، وكأن الباري عزّ وجلّ يريد أن يقول لهؤلاء الفراعنة الملحدين، وعلى رأسهم فرعون، إنَّ الحية ما هي إلا من مخلوقات الله التي تمتثل لأوامره، وهي معجزة موسى عليه السلام، ولا تستحق الحية أن تكون موضعاً للتقديس، والله اعلم.

ويعكس موقف السحرة في تحولهم من معسكر فرعون إلى اتباع موسى، أثر العقيدة في النفوس، فقد ألقوا حبالهم وعصيهم أول الأمر للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود على حد تعبير الزمخشري صاحب "الكشاف".

ونمضي مع موسى عليه السلام وقومه بعد أن نجاهم الله سبحانه وتعالى من فرعون وجنوده، ونلتقي مع قصة بقرة بني إسرائيل والقاتل المجهول، حيث لجأ القوم إلى موسى ليدلهم على القاتل حتى لا تكون فتنة بينهم، فأوحى الله سبحانه إلى موسى بالحل الأمثل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾(٥٧).

ويرى بعض المفسرين أن الله سبحانه وتعالى أمرهم بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، وفي أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا

الحيوان الذي عظّموه وعبدوه وأحبوه، فكأنه سبحانه وتعالى يقول لهم: إن هذا البقر الذي يضرب به المثل في البلادة لا يصلح أن يكون معبوداً من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقي والعمل والذبح"[٥٨].

وفيما نرى أن العجل لم يكن موضع تقديس فحسب، بل كانت البقرة أيضاً موضع تقديس الفراعنه، حين صّور لهم خيالهم الساذج أن الدنيا تأخذ شكل بقرة عملاقة اسمها "حتحور"، وأن الشمس عجل يولد كل يوم ويدور حولها في موكب عبر السماء، ثم يغيب وراء الأفق ليستريح، ثم يعود في اليوم التالي ليقوم بالرحلة نفسها، ويبدو أن بني إسرائيل الذين أقاموا في مصر طويلاً قد تأثروا ببعض المعتقدات الدينية الفرعونية[٥٩].

ويعكس الحوار الممتد بين موسى وقومه حول أوصاف البقرة عن سفههم وسوء ظنهم برسولهم الكريم، إذ إنّ قولهم: **"أتتخذنا هزواً؟"** ، إشارة إلى شكهم الواضح فيما أمرهم به، كما يشي بعدم توقيرهم له، وجهلهم بعظمة الله سبحانه وتعالى القادر على الخلق من العدم والبعث بعد الموت. ويتضح سوء أدبهم في قولهم لموسى عليه السلام: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟﴾[٦٠] وكأنما هو رب موسى وحده لا ربهم كذلك، وكأن المسألة لا تعنيهم هم، وإنما تعني موسى وربه.

وتشير سلسلة الأسئلة التي طرحها بنو إسرائيل على موسى حول لون البقرة، وسنّها وشكلها إلى أنهم قوم طبعوا على الجدل العقيم، وعدم التسليم للرسول بسهولة والنزول عند أوامر الله، كما أنهم يؤثرون المماطلة في الانصياع للتكاليف. وقد أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم، لكنهم شدّدوا فشّدد الله عليهم"[٦١].

ونحن نرجح أن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى على الإحياء والإماتة، وما هذا الضرب إلا وسيلة كشف للناس عن طريق المشاهدة عمن آثار قدرته تعالى التي لا يدرون كيف تعمل، إذ يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يدركون كنهها[٦٢].

وإذا كانت بقرة بني إسرائيل قد ذبحت لتعيد الحياة من جديد إلى القتيل بإذن الله وتكشف هوية القاتل، فإن حمار عزير عليه السلام، قد أماته الله قرناً ثم أحياه ليكون آية على البعث والنشور: . ﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٦٣] وواضح من الآية الكريمة أن الله، سبحانه وتعالى، أعاد الحياة إلى الحمار وعزير عليه السلام ينظر إلى عظام الحمار المتطايرة التي كانت تحملها الريح التي هبت بإذن الله فعادت كل عظمة إلى مفصلها حتى صار الحمار قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله سبحانه ملكاً فنفخ في منخري الحمار فنهق بإذن الله، فقال عزير: أنا عالم بهذا، وقد رأيته عياناً[٦٤].

ومن يتأمل بعث الحمار في هذه الآية الكريمة يدرك أن الإنسان يجب ألا يخدع بالمظاهر الخارجية، ذلك أن الحمار بين الناس مرتبط بمعانٍ أشهرها البلادة والغباء والذل، إلا أن الله سبحانه وتعالى جعله آية تدل على قدرته جل وعلا على الإماتة والبعث. وينسحب هذا على كلب أهل الكهف الذي صحبهم ولازمهم طيلة المدة التي مكثوا فيها داخل الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[٦٥].

وتوقَّف الجاحظ عند قصة أهل الكهف وكلبهم، ورأى أن صحبته لهؤلاء الفتية الأبرار له دلالاته العميقة إذ يقول: "إن الفتية لم يستصحبوا من جميع من يألف الناس

ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غير الكلب، فإن مما يألف الناس ويرتفقون به، ويسكنون إليه الفرس، والبعير، والحمار، والبغل، والثور، والشاة، والحمام، والديكة، كل ذلك مما يرتفق به، ويستصحب في الأسفار، وينتقل من بلد إلى بلد. والناس يصطادون بغير كلب، ويستمتعون بأمور كثيرة، فخبَّر عنهم بعد أن جعلهم خياراً أبراراً أنهم لم يختاروا استصحاب شيء سوى الكلب، وليس يكون ذلك من الموفقين المعصومين المؤيدين، إلا بخاصة في الكلب لا تكون في غيره"[٦٦]، ويمضي الجاحظ في تأكيد منزلة الكلب من شخصيات القصة في تعليق على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[٦٧] بأن هذه الآية الكريمة من سورة الكهف دليل على أن الكلب رفيع الحال، نبيه الذكر، إذ جُعل رابعهم، وعُطف ذكره على ذكرهم، واشتق ذكره من ذكرهم، حتى كأنه واحد منهم، ومن أكفائهم وأشباهم، أو مما يقاربهم، ولولا ذلك لقال: سيقولون ثلاثة معهم كلب لهم[٦٨].

وكما قامت عناية الله سبحانه على هؤلاء الفتية، فإنها قامت كذلك على هذا الكلب، حيث كان يقلَّب ذات اليمين وذات الشمال كما يقلَّبون وهو في مجثمه هذا على مدخل الغار، يخيف كل من تحدّثه نفسه بالدخول من إنسان وحيوان. وإذ يبعث الله سبحانه وتعالى الفتية، يبعث معهم ذلك الكلب الذي أنكر الشرك والضلال، فهاجر مع الفتية، فأضيف إليهم وكأنه واحد منهم[٦٩].

وقد أورد الجاحظ هذا كله، رغم أنه ساق في الجزء الأول من "الحيوان" طائفة من الأمثال السائرة التي تحطّ من قدر الكلب نحو: يقال للسفيه إنما هو كلب، وإنما أنت كلب نبَّاح، وما زال ينبح علينا منذ اليوم، وأخسأ من كلب. كما قالوا: أجع كلبك يتبعك، وسمّن كلبك يأكلك، وأجوع من كلبة حومل وغيرها[٧٠].

وهذا يؤكد من جديد ما ذهبنا إليه من أن وراء الظاهر المشاهد أموراً أخرى تعزّ على التفسير وتستغلق على الأفهام.

وينتهي بنا المطاف إلى الدابة الناطقة التي حيَّرت المفسرين ، فاضطرب الكثير منهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾[٧١] ويكمن الإعجاز في هذه الآية الكريمة في أكثر من وجه، إذ ترتبط من ناحية بإحدى علامات الساعة الكبرى، وترتبط من ناحية أخرى بأنها دابة ناطقة تكلم الناس الذين لم يعهدوا الحيوان متحدثاً معهم محاوراً لهم.

وقد أسهب الدارسون والمفسرون في ذكر أوصاف الدابة وزمان خروجها ومكانه. ومما يرويه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً"[٧٢]، وذكر النسفي في تفسيره أن الدابة لها جناحان، تخرج من الصفا وتكلم الناس. وعندما تخرج يكون معها عصا موسى وخاتم سليمان، فتضرب المؤمن في موقع سجوده من جبهته، أو فيما بين عينيه بعصا موسى فتكتب بين عينه "مؤمن"، والله اعلم[٧٣].

ومن أرض الله الواسعة وعجائب مخلوقاته فيها، نتحول إلى عالم البحار فنلتقي حوت موسى وفتاه اللذين خرجا في رحلة بحثاً عن العبد الصالح الخضر عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾[٧٤].

وتلقي مناسبة هذه الآية الكريمة الضوء عليها، إذ روى البخاري عن أُبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: "إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أيّ الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله سبحانه عليه إذ لم يردّ العلم

إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. والآيات الكريمة في سورة الكهف تبسط لنا القصة كاملة. ويهمنا أن نقف هنا على لفظة "حوت" الواردة في القصة والتي تعني السمكة المملوحة التي حملها فتى موسى في مكتل، وعندما بلغا مجمع البحرين طفر الحوت المملوح إلى البحر بعد أن ردت إليه الحياة بإذن الله، وهنا يكمن الإعجاز خاصة إذا علمنا أن بعض الروايات تذهب إلى أن موسى عليه السلام قد أمر بحمل حوت مشوي كان بمثابة الدليل المرشد لموسى وفتاه عندما اتخذ طريقه في البحر سرباً، فلما تتبعا أثره وصلا إلى مكان العبد الصالح، الذي صحبه موسى في رحلة عجيبة مذهلة تشير إلى أن الله سبحانه قد أعطى للعبد الصالح من العلم ما حجبه عن موسى عليه السلام، وبْعثُ الحياة في الحوت المشوي دلالة على قدرة الله سبحانه على منح الحياة وسلبها في سهولة ويسر.

وتزيد بعض الروايات في هذه القصة، فتذكر أن السمكة المملوحة كان مأكول منها، وقد طفرت إلى الماء بعد أن دبت فيها الحياة بإذن الله فانتصب الماء مثل الطاق الذي كان هادياً لموسى وفتاه[٧٥].

وحمل بعض المفسرين مجمع البحرين على أنه رمز للظاهر والباطن أو التفسير والتأويل، أو العلم المكتسب والعلم اللَّدني الذي يقذفه الله سبحانه في قلوب الصفوة، كما أنه رمز لعلم موسى وعلم الخضر عليهما السلام[٧٦].

وسلسلة الأحداث المثيرة التي شهدها موسى في رحلته مع الخضر والحافه في السؤال؛ لمعرفة سرّ ما يجري، دفع الخضر إلى فراقه. وتلك إشارة واضحة إلى أن العديد من الأحداث التي تصادفنا في هذه الحياة يجب ألا نحكم عليها بظاهرها، بل علينا أن نوقن بأن وراء الظاهر المشاهد أسراراً لا يعلمها إلا الباري سبحانه، ولا بد من التسليم وعدم التبرم والشكوى.

ومجمل القول، فإن القاسم المشترك الأعظم بين قصص القرآن المعجز الذي كانت بعض شخصياته الرئيسة من عالم الحيوان جاءت لتؤكد إعجاز القرآن الكريم، وأن الله سبحانه الخالق من العدم قادر على البعث بكافة صوره، كما أن خالق النواميس قادر على خرقها أنّى أراد وكيف شاء، فسبحان خالق الخلق بديع الصنع الذي أحسن كل شيء أبدعه وإليه المصير.

الإعجاز القرآني في قصص الطير:

من يستعرض الطير في القرآن الكريم بشكل عام، يلاحظ أنه أقل عدداً من الحيوان، إذ يبلغ ربع عدد الحيوان المذكور في كتاب الله، كما أن أنواع الطيور لا تتجاوز سبعة أنواع.

وأكثر الألفاظ تردداً هي لفظة "طير" تليها لفظة "طائر" التي تشعبت دلالاتها كما أسلفنا.

وعرض القرآن الكريم لفظة "طير" منكّرة مرة ومعرّفة أخرى، إضافة إلى لفظة "طائر" في معارض شتى من الصور البديعة نوجزها فيما يلي:

١ـ دلت في موضع على وحدة الخلق والمصير بين عالمي الحيوان والطير ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٧٧).

٢ـ بيان نعم الله على بعض رسله وأنبيائه كقصة إبراهيم عليه السلام وأربعة من الطير (البقرة ـ٢٦٠)، وعيسى عليه السلام وخلق الطير من الطين بإذن الله (آل عمران ٤٩)، وداود وسليمان عليهما السلام وتسخير الطير لهما (الأنبياء ٧٩ـ النمل ١٧).

٣ـ عرض بعض الظواهر المعجزة في عالم الطيور كالتسبيح وظاهرة الصف (النحل ـ ٧٩ ـ النور ٤١).

٤- بيان أن الطير من جنود الله يسلّط بعضها على الكفرة الفجرة فيهلكهم، وهذا ما رأيناه في سورة الفيل، حيث أرسل الله سبحانه وتعالى "طيراً أبابيل" فأهلك جيش أبرهة الحبشي المتغطرس. ويتضح هذا أيضاً في قوله تعالى: ﴿مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٧٨].

٥- بيان بعض طعام أهل الجنة: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٧٩].

وعرض القرآن الكريم أنواعاً خاصة من الطيور، فذكرت بأسمائها للأغراض الآتية:

أ- بيان بعض نعم الله سبحانه وتعالى على المؤمنين: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾[٨٠].

ب- بيان بعض نعم الله على بني إسرائيل ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾[٨١].

ج- تسخير بعض الطيور لتعلم الإنسان ما لم يعلم: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾[٨٢].

د- إحاطة بعض الطيور بعلم لدني خصت به دون غيرها من مخلوقات الله سبحانه كالهدهد الذي قال لسليمان عليه السلام ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[٨٣].

وهذا العرض السريع يشير إلى مكانة الطير في القرآن الكريم، بيد أن ما يهمنا هو القصص القرآني الذي يتضمن إعجازاً كقصة إبراهيم عليه السلام، حيث أراد أن يوغل في طريق الإيمان، فتمنىً على الباري، جلت قدرته، أن يريه كيف يحيى الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٨٤].

واختلف المفسرون حول أنواع الطيور الأربعة، فذهب فريق إلى أنها كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً[٨٥]، وذكر فريق أنواعاً أخرى.

وشتّ الخيال ببعض المفسرين، فراحوا يؤوّلون أسماء هذه الطيور تأويلاً رمزياً يتفق مع اتجاهاتهم العقدية الخاصة، فزعم أحد هؤلاء المفسرين أن الطاووس رمز أريد به زينة الدنيا، والديك رمز للشهوة، والنسر رمز الأمل الطويل، والبط رمز للحرص الشديد[٨٦].

وهذا التعسف في تفسير القرآن الكريم وحمله على وجوه تبعده عن جادة الصواب، يشير إلى ما يتوجب توفره من شروط في المفسِّر، وحدّها الأدنى البعد عن الهوى والتعصب لمذهب ديني أو حزب سياسي؛ مما ينأى بالنص عن مقاصده.

وليست الغاية من قصة إبراهيم، عليه السلام، أن نعرف أنواع الطيور المذبوحة؛ لأن هذا لا يقدّم ولا يؤخر، وإنما المعوّل عليه هو الغاية من هذه القصة، وهي إكرام الله سبحانه وتعالى لأبي الأنبياء، حيث أراد أن يخرج من علم اليقين إلى عين اليقين، فكانت تلك التجربة الفريدة التي تقوم على سلب الحياة وبعثها من جديد بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومنح الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام كذلك القدرة على بعث الحياة في الطين الذي ينفخ فيه فيصبح طيراً بإذن الله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾[٨٧] تعيد إلى الذاكرة خلق آدم عليه السلام، كما أن قدرة عبد من عباد الله هو عيسى على خلق الطير وإحياء الموتى تتضاءل أمام قدرة الخالق العظيم الذي يخلق من العدم.

وإذا كانت بعض القصص والحكايات الخرافية والأساطير التي عرفتها العرب في جاهليتها، كما عرفتها الأمم الأخرى، تتكلم فيها الطيور على سبيل المجاز، فإن بعض الطيور في القرآن الكريم تتكلم على وجه الحقيقة: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾[٨٨].

وتعكس قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد، المكانة المرموقة لبعض الطيور في القصص القرآني، إذ يشكل الهدهد شخصية محورية في أقواله وأفعاله والعلم الذي ألهمه، ولم يحط به سليمان عليه السلام.

وقد تفقد سليمان عليه السلام الطير فلم تقع عينه على الهدهد، فتوعَّده بأشد عقوبة إنْ لم يبد عذراً مقنعاً: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[٨٩].

وذهبت بعض المراجع إلى أن سليمان عليه السلام تفقد الطير لأنه كان في حاجة إلى الهدهد ليدله على مواقع الماء في سفره؛ لأنَّ الهدهد يرى الماء في بطن الأرض[٩٠]، وتلك قضية فيها نظر!.

وجاء الهدهد فبسط حجته بين يدي سليمان عليه السلام: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[٩١].

ويعرض الجاحظ هذه الآيات الكريمة التي تكشف عن علم أعطاه الله سبحانه وتعالى للهدهد ولم يعطه لسليمان عليه السلام، حتى لا يصاب بالغرور. ويرى الجاحظ أن هدهد سليمان هو طائر بعينه، لا ينسحب علمه على جنس الهداهد، وهذا الطائر كان مسخّراً وميسّراً لسليمان عليه السلام. وفي حديث الهدهد لسليمان ما يكشف عن علمه الدقيق، إذ أدرك هذا الطائر عظمة عرش ملكة سبأ، كما فصل ما بين الملوك والسوقة، وما بين الرجال والنساء، كما عرف السجود للشمس وأنكر المعاصي، وتعجّب

من سجود القوم لغير الله، ثم علم أن الله يعلم غيب السماوات والأرض. وهذا كله يدل على أن وجوه الإعجاز تتجلّى في نطق الهدهد ومعرفة سليمان لمنطقه، والعلم الذي منحه الله – سبحانه وتعالى – للهدهد وحجبه عن سليمان عليه السلام تأديباً واتعاظاً[٩٢].

ومن يتأمل قصص الحيوان والطير في القرآن الكريم، يلاحظ أنها شملت الكون كله: براً وجّواً وبحراً، حيث كان للحيوانات الأليفة حصة الأسد كالناقة والحمار والكلب، تليها الطيور ثم الأسماك والحيتان.

وتناول موضوع القصص القرآني الذي عرضناه قضية محورية هي قضية إحياء الموتى معجزة للرسل، وقد شمل الإحياء الإنسان والحيوان والطير؛ للدلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى، على خلق النواميس وخرقها وصدق الرسل.

وشملت القصص التي عرضناها شخصيات من عالم الحيوان والطير بعضها داجن مألوف كالحمار والكلب والناقة، وبعضها غرائبي مدهش كالدابة التي تكلم الناس، كما كان لهذه الحيوانات والطيور دور مركزي فاعل مؤثر لا يقل أهمية عن شخصيات البشر، وكان معظمها مادة حية لتجربة البعث ، وهي معجزة الرسل المادية قبل مجيء الرسول محمد عليه السلام.

وقد بدت هذه الحيوانات والطيور منفعلة مسخرة للدور الذي خلقت من أجله، فهي تسبح الله سبحانه وتعالى آناء الليل وأطراف النهار، كما أنها أداة لعقاب الكفرة كقصة أصحاب الفيل، بينما الكثير من الناس في هذه القصص قد خرجوا عن شريعة الله، فعبدوا الأوثان وآذوا الرسل وأصرّوا على الإلحاد حتى نزل بهم العقاب الأليم.

وغطّى الزمن الخارجي لقصص الحيوان والطير فترة متطاولة من الزمان بدأت من عهد ابني آدم وقصتهما مع الغراب الذي أرشد قابيل إلى طريقه دفن أخيه؟، وانتهت آخرها بالإشارة إلى إحدى علامات الساعة الكبرى وهي ظهور الدابة. أما الزمن

الداخلي، فلم يتجاوز دقائق معدودة في قصة ذبح البقرة وقتيل بني إسرائيل، الذي ردّ إلى الحياة ليعلن اسم قاتله ثم يعود إلى عالم الموتى، بينما مكث يونس في بطن الحوت ساعات أو أياماً يعلمها الله، وتطاول الزمن في قصة عزير، حيث أماته الله سبحانه وتعالى مائة عام، واستطال في قصة أصحاب الكهف فبلغ ثلاثمائة وتسع سنين، إذ ردّت الحياة اليهم وإلى كلبهم الذي أكرمه الله لأنه تبعهم، وبذا يكون الزمن في هذا القصص القرآني العجيب قد غطى وحدات الزمن المعروفة دالاً على قدرة الله المطلقة.

وتعددت مسارح الأحداث في هذه القصص، فغطت رقعة شاسعة من الأرض شملت مواقع محددة معروفة حتى يومنا هذا كمدائن صالح في الجزيرة العربية، وأرض فلسطين التي شهدت أحداث قصة عزير وحماره، وأرض مصر التي شهدت نضال موسى عليه السلام ضد فرعون وأنصاره وصراعه مع بني إسرائيل، إضافة إلى مواقع أخرى اختلف حول تحديدها المفسرون مثل مكان خروج الدابة ومجمع البحرين وغيرهما.

وتعدد الأمكنة واختلاف الأزمنة تشير كلها إلى أن الطبيعة الإنسانية واحدة في كل زمان ومكان، فبعث لهم الرسول تلو الرسول مزوداً بمعجزة حسّية تدل على صدق رسالته، إلا أن هؤلاء الرسل قوبلت دعوتهم بالرفض، وتعرضوا للأذى، ولم يتبعهم إلا عدد قليل.

وإذا ما انتهينا إلى ختام قصص الحيوان والطير في القرآن،فإننا نلاحظ أنها من النوع المغلق، بمعنى أن النهايات واضحة محددة تدل كلها على قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يهب الحياة ويسلبها أو يعيدها أنّى شاء، كما يعطي من علمه للصفوة من خلقه، وينصر أنبياءه ورسله في نهاية المطاف على الكفرة والمعاندين، ويستأصل شأفتهم من الأرض لأنهم ليسوا أهلاً للاستخلاف.

وهكذا تتجلّى الفروق الجوهرية بين قصص الحيوان والطير في القرآن الكريم والقصص الذي عرفته العرب والشعوب الأخرى: فإذا كان الحيوان والطير في قصص الشعوب موضعاً للعبادة والتقديس، فهو في القصص القرآني عابد مسبح لله سبحانه مسخّر لطاعة الخالق.

وفي الوقت الذي ينطق فيه الحيوان والطير في القصص التي أبدعها الإنسان على سبيل المجاز، نرى أن الحيوان والطير في القرآن ينطقان على وجه الحقيقة، فالهدهد خاطب سليمان عليه السلام، والدابة ستكلم الناس.

وإذا كانت النظرة إلى بعض الحيوانات تتسم بالاستخفاف والتحقير والشؤم عند كثير من الناس، كنظرة العديد من الأمم إلى الكلب والحمار والغراب، فإن القصص القرآني قد عرض هذه المخلوقات في سياق يدلّ على تكريمها؛ لارتباطها بشخصيات رسل مكرمين أو عباد مخلصين.

ومن الملاحظ أن القصص الذي يبدعه البشر كثيراً ما يرتكز على الخيال المجنح ويقصُّ ما كان، وما يمكن أن يكون أو يقع، بينما القصص القرآني يقوم على أرضية صلبة، فيعرض أحداثاً وقعت وشخصيات عاشت بعيداً عن تهويمات الخيال.

أما النسيج القصصي أو اللغة، فلا وجه شبه بين أسلوب القرآن المعجز الرائق البديع وأسلوب القاصين الذي يعتريه النقص، وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٩٣).

جدول رقم (١)

أسماء الحيوانات الواردة في القرآن الكريم

م	اسم الحيوان	عدد مرات ذكره
١	الإبل	٣
٢	الأنعام	٣٥
٣	البغال	١
٤	البقر	١
٥	الثعبان	٢
٦	الحمار	٣
٧	الحوت	٥
٨	حية	١
٩	الخنزير	٥
١٠	الخيل	٥
١١	الدابة	١٣
١٢	الدواب	٤
١٣	ذبح	١
١٤	الذئب	٣
١٥	الضأن	١
١٦	الضفادع	١
١٧	العجل	١٠
١٨	الفيل	١
١٩	القردة	٢
٢٠	قسورة	١
٢١	كلب	٥
٢٢	معز	١
٢٣	ناقة	٧
٢٤	نعجة	٣
٢٥	وحوش	١
	المجموع الكلي	١٢٢

جدول رقم (٢)

أسماء الطيور الواردة في القرآن الكريم

مسلسل	اسم الطائر	عدد مرات ذكره
١	الجوارح	١
٢	السلوى	٣
٣	الطير	٢٠
٤	طيراً أبابيل	١
٥	غراب	٢
٦	المن	٣
٧	الهدهد	٢
المجموع الكلي		٣٢

الهوامش :

(١) نور الدين حاطوم ورفاقه. موجز تاريخ الحضارة. دمشق ـ ١٩٦٤م ، ص١٤.

(٢) د. عبد الحميد يونس. الحكاية الشعبية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ ، ص٣٠.

(٣) انظر: د. عز الدين إسماعيل. الفن والإنسان، دار القلم ـ بيروت ـ ١٩٧٤م ، ص٣٣.

(٤) المرجع السابق ـ ص١٢١.

(٥) انظر: نور الدين حاطوم ورفاقه. موجز تاريخ الحضارة. مرجع سابق، ص١٩٦.

(٦) انظر: د. عز الدين اسماعيل. الفن والإنسان. مرجع سابق، ص٤٩.

(٧) د. احمد عثمان. الشعر الإغريقي ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ ١٩٨٤ ، ص٦٢.

(٨) د. احمد عثمان. الأدب الإغريقي. دار المعارف ـ القاهرة ـ ج١ ـ ١٩٨٧م، ص٤١٧.

(٩) نور الدين حاطوم ورفاقه. موجز تاريخ الحضارة ـ مرجع سابق، ص٥٦٧.

(١٠) انظر: د. عبد الحميد يونس. الحكاية الشعبية ـ مرجع سابق، ص ٣٢.

(١١) المرجع السابق، ص٤١.

(١٢)

(١٣) الآية ٢٣ من سورة نوح.

(١٤) انظر: د. عبد القادر الرباعي. الطير في الشعر الجاهلي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٩٨م، ص١٢٢.

(١٥) انظر: الجاحظ ـ الحيوان –تحقيق عبد السلام هارون ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ ـ ج١، ص٢٢٠ وما بعدها.

(١٦) انظر: مجمع الأمثال للميداني. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥م ـ ط٢، ص٧٢.

وانظر: د. الطاهر احمد مكي. القصة القصيرة – دار المعرف القاهرة ـ ط٦ ـ ١٩٩٢م، ص٢١.

(١٧) انظر: د. عبد القادر الرباعي. الطير في الشعر الجاهلي ـ مرجع سابق، ص٩ وما بعدها.

(١٨) انظر: د. علي الحديدي . أدب الأطفال ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ط٣ ـ ١٩٨٢م، ص٤٢ وما بعدها.

(١٩)

(٢٠) انظر: د. محمد يونس عبد العال. في النثر العربي. مكتبة لبنان ـ بيروت ـ ١٩٩٣م، ص٢٢٩.

(٢١) انظر: محمد عجاج الخطيب . أصول الحديث ـ علومه ومصطلحة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨١م، ص٤٢٤.

وانظر: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين. السيد نعمة الله الجزائري. دار الأندلس ـ بيروت، ص٣٥٩، ص٤٤١.

(٢٢) أبو عثمان الجاحظ : الحيوان ـ مرجع سابق ـ ج١ ، ص١٤٦.
(٢٣) المرجع السابق، ص١٤.
(٢٤) كمال الدين الدميري. حياة الحيوان ـ مرجع سابق ـ دار الفكر ـ بيروت ـ د.ت ـج١ ، ص٩٤.
(٢٥) محمد الخضري . نور اليقين في سيرة المرسلين ـ القاهرة ـ ١٩٦٩م، ص١٠٥.
(٢٦) انظر: د. سهير القلماوي . ألف ليلة وليلة- دار المعارف ـ القاهرة ـ ط٤ ـ ١٩٧٦م، ص٢٠٣.
(٢٧) انظر: مصطفى الصادق الجويني. جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني ـ منشأة المعارف ـ الاسكندرية ـ ١٩٨٣م، ص٣٣.
(٢٨) الآية ٥ من سورة النحل.
(٢٩) الآيتان ٢١، ٢٢ من سورة المؤمنون.
(٣٠) الآية ٧٣ من سورة الحج.
(٣١) الآية ٣٨ من سورة الأنعام.
(٣٢) الآية ١٤ من سورة سبأ.
(٣٣) الآية ٨٢ من سورة النمل.
(٣٤) الآية ١٤٢ من سورة الصافات.
(٣٥) الآية ٦١ من سورة الكهف.
(٣٦) الآية ٢٣ من سورة ص.
(٣٧) انظر: محمد علي الصابوني. صفوة التفاسير ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت ـ ١٩٨١م، ص٥٥.
(٣٨) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.
(٣٩) الآية ٤١ من سورة النور.
(٤٠) الآية ١٧ من سورة النمل.
(٤١) الآية ٣٨ من سورة الأنعام.
(٤٢) انظر: محمد عبد الصمد. الإعجاز العلمي في الإسلام ـ القرآن الكريم. الدار المصرية اللبنانية ط٢- ١٩٩٣م، ص١٥٠.
(٤٣) الآية ١٣ من سورة الإسراء.
(٤٤) الآية ١٣١ من سورة الأعراف.
(٤٥) الآية ٤٣ من سورة يوسف.
(٤٦) انظر: نديم الجسر. غريب القرآن ـ المكتبة الحديثة- لبنان. ط٣ ـ ١٩٨٤م، ص١٢.
(٤٧)
(٤٨) انظر: سيد قطب . التصوير الفني في القرآن – دار الشروق ـ القاهرة ـ ط٨ ـ ١٩٨٣م، ص١٤٤.
(٤٩) الآية ٦٢ من سورة آل عمران.
(٥٠) الآية ٥٢ من سورة النمل.
(٥١) انظر: د. احمد بدوي. من بلاغة القرآن- دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٥٠م، ص٥٤ وما بعدها.

(٥٢) الآية ٦٤ من سورة هود.
(٥٣) الآيات ٢٧ ـ ٣١ من سورة القمر.
(٥٤) الآيات ١٧ ـ ٢١ من سورة طه.
(٥٥) الآيات ١١٥ ـ ١١٨ من سورة الأعراف.
(٥٦) د. محمد سيد طنطاوي. القصة في القرآن الكريم ـ مرجع سابق، ص٤٠٦.
(٥٧) الآية ٦٧ من سورة البقرة.
(٥٨) انظر: د. محمد سيد طنطاوي ـ القصة في القرآن الكريم ـ مرجع سابق ، ص٥٢٩.
(٥٩) انظر: عز الدين إسماعيل . الفن والإنسان ـ مرجع سابق ، ص٣٣.
(٦٠) الآية ٧٠ من سورة البقرة.
(٦١) نقلاً عن: د. محمد سيد طنطاوي. القصة في القرآن الكريم ـ مرجع سابق، ص٥٣٣.
(٦٢) انظر: المرجع السابق، ص٥٣٤.
(٦٣) الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.
(٦٤) محمد علي الصابوني. مختصر تفسير ابن كثير ـ دار القرآن ـ بيروت ـ ط٦ ـ ١٩٨١م، ص٢٣٥.
(٦٥) الآية ١٨ من سورة الكهف.
(٦٦) الجاحظ . الحيوان– مرجع سابق ـ ج٢ ـ ص١٨٩.
(٦٧) الآية ٢٢ من سورة الكهف.
(٦٨) المرجع السابق، ص١٩٠.
(٦٩) انظر: عبد الكريم الخطيب. القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٤، ص٨٤ وما بعدها.
(٧٠) الجاحظ . الحيوان ـ مرجع سابق ـ ج١، ص٢٩٠.
(٧١) الآية ٨٢ من سورة النمل.
(٧٢) عبد الكريم الخطيب. القصص القرآني ـ مرجع سابق، ص١٥٣.
(٧٣) المرجع السابق، ص١٥٤.
(٧٤) الآيتان ٦٠، ٦١ من سورة الكهف.
(٧٥) انظر: محمود الشلبي. حياة الخضر ـ دار الجيل ـ بيروت –ط٢ ـ ١٩٩٢م، ص٧٩.
(٧٦) انظر: د. محمد سيد طنطاوي. القصة في القرآن الكريم ـ مرجع سابق، ص٥٤٢.
(٧٧) الآية ٣٨ من سورة الأنعام.
(٧٨) الآية ٣١ من سورة الحج.
(٧٩) الآية ٢١ من سورة الواقعة.
(٨٠) الآية ٤ من سورة المائدة.
(٨١) الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.
(٨٢) الآية ٣١ من سورة المائدة.

(٨٣) الآية ٢٢ من سورة النمل.
(٨٤) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.
(٨٥) محمد علي الصابوني. صفوة التأشير ـ مرجع سابق ـ ج١، ص١٦٦.
(٨٦) انظر: السيد نعمة الله الجزائري. النور المبين في قصص الأنبياء والرسلين ـ مرجع سابق، ص١١٤.
(٨٧) الآية ٤٩ من سورة آل عمران.
(٨٨) الآية ١٦ من سورة النمل.
(٨٩) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة النمل.
(٩٠) انظر: د. محمد البستاني دارسات فنية في قصص القرآن- دار البلاغة ـ بيروت ـ ١٩٨٩م، ص٤٠٥.
(٩١) الآيات ٢٢ ـ ٢٦ من سورة النمل.
(٩٢) انظر: الجاحظ. الحيوان ـ مرجع سابق ـ ج٤، ص٨٥.
(٩٣) الآية ١١١ من سورة يوسف.